11- الرواية

تمهيد:

الرواية أكبر أنواع القصة من حيث طولها واتساعها الزمني، وربما استغرق الزمن فيها حياة البطل أو حيوات أجيال، وقد تكون في جزء واحد أو عدة أجزاء، لكنه لا بد من الإشارة إلى أن النقاد العرب ودارسي فن الكتابة القصصية كثيرا ما لا يحددون المصطلحات، وقد لا يوحد الكاتب الواحد منهم أثناء الدراسة المصطلح الذي يطلقه على النص القصصي الواحد، فبعضهم يسمي (زينب) لمحمد حسين هيكل قصة، والبعض يسميها رواية أو قصة طويلة.

اتجاهات الرواية:

وإضافة لما ذكرناه حول تطور الكتابة القصصية بين محاكاة التراث القصصي العربي، والنقل عن الغرب، ثم محاولات الإبداع، فإنه يمكن القول بأن الرواية العربية الحديثة اختلفت بين عدة اتجاهات، **اتجاه تاريخي** يقوم بصياغة التاريخ في قالب فني روائي يرغب القراء في القراءة والمطالعة، ومن الرواد الأوائل الذين يمثلون هذا المنحى جورجي زيدان من خلال رواياته التي اقتبس موضوعاتها من التاريخ العربي والإسلامي ومنها (عذراء قريش، الحجاج بن يوسف، غادة كربلاء، أبو مسلم الخراساني، العباسة أخت الرشيد، أحمد بن طولون، عبد الرحمان الناصر...).

وبعض الروايات اتجه إلى **الترجمة** حيث استعرض فيها أصحابها جانبا من حياتهم الشخصية مثل (الأيام) لطه حسين، و(إبراهيم الكاتب، وإبراهيم الثاني) لإبراهيم عبد القادر المازني، و(عصفور من الشرق، ويوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، و(سارة) لعباس محمود العقاد.

ومنها ما اهتم بمعالجة القضايا **الاجتماعية** كروايات نجيب محفوظ (بداية ونهاية، زقاق الدق، اللص والكلاب...).

ومن الروايات ما اهتم **بالجانب النفسي** كرواية (السراب) لنجيب محفوظ.

كما أن الأدب الجزائري شهد ظهور الرواية **المكتوبة باللغة الفرنسية**، لكنها جزائرية عربية في روحها وموضوعها كثلاثية محمد ذيب (الدار الكبيرة، الحريق، النول)، ورواية (نجمة) لكاتب ياسين، و(رصيف الأزهار لم يعد يجيب، والتلميذ والدرس) لمالك حداد...

وتجدر الإشارة إلى أن جل ما كتب في الرواية العربية الحديثة لا يكاد يخلو من وصف الجانب **العاطفي** وعلاقات الحب بين الرجل والمرأة، ولعل رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل اصطبغت بعدة ألوان، فهي رواية عاطفية رومنسية ريفية، إلى جانب أنها اجتماعية واقعية، والدارسون يعدون هذا الأثر محاولة رائدة في سبيل كتابة رواية عربية حديثة وفق المقاييس الفنية للرواية، فقد أتيح لمحمد حسين هيكل أن يدرس في فرنسا، ويفيد من الأدب الغربي، بل يذكر في مقدمته للرواية بأنه أنهى كتابتها في باريس عام 1911، ونشرت عام 1914 بعد عودته إلى مصر، ليشتغل بالمحاماة، وبعد شيء من التردد، لذلك أخفى اسمه، ونسبها إلى (مصري فلاح)، وقد قدم كلمة (مصري) على فلاح حتى لا تكون وصفا للفلاح، لأنه كان يحس ممن كانوا يحكمون مصر بالنظرة الدونية إلى المصريين وإلى الفلاحين تحديدا، كما يشير إلى أن الحنين إلى مصر هو الدافع الأساسي في كتابة (زينب).

رواية زينب:

ملخص زينب أنها تمثل شخصية فتاة فقيرة من الريف المصري تقضي يومها عاملة في الحقل تجني القطن مع بقية الفلاحين في أراضي ومزارع والد حامد، تختلف حياتها العاطفية بين ثلاثة من الشباب، واحد أحبها وهو حامد، لكن الفوارق الطبقية بينهما حالت دون اكتمال هذه العلاقة، والثاني أحبته وأحبها هو إبراهيم ناظر العمال في مزارع محمود والد حامد، والثالث تزوجت منه هو حسن وهو فلاح مثلها ومن طبقتها، فحياة زينب العاطفية لم تكن موفقة لأنها تارة محفوفة بالتقاليد والصراع الطبقي وطورا بالمنع الخوف، لتنتهي بالزواج من رجل لا تريده وتقع فريسة للمرض ثم الموت، ومن خلال زينب صور الكاتب معاناة العاملين (الفلاحين)، وتحكم أصحاب الأرض من الإقطاعيين، كما قدم صورا من مناظر الريف المصري، وصورا من أخلاق أهله استهلها الكاتب برسم جانب من البيئة الريفية التي كانت مسرحا للحوادث:«في هاته الساعة من النهار، حين تبدأ الموجودات ترجع لصوابها، ويقطع الصوت المطلق الذي يحكم على قرى الفلاحين طول الليل آذان

المؤذن وصوت الديكة ويقظة الحيوانات جميعا من راحتها، وحين تتلاشى الظلمة ويظهر الصباح رويدا رويدا من وراء الحجب، في هاته الساعة كانت زينب تتمطى في مرقدها، وترسل في الجو الساكن الهادئ تنهدات القائم من نومه، وعن جانبيها أختها وأخوها لا يزالان نائمين».

يغلب على الرواية طابع السرد والوصف في لغة سهلة ميسورة وتعبير بسيط، يتخلله بعض الحوار الذي لم يكن فصيحا في معظمه، فقد وظف الكاتب اللغة العامية المصرية، ولعله يريد بذلك لتكون لغة الحوار مناسبة للشخصية قريبة من مستواها الاجتماعي والثقافي، ومنه هذا المقطع الحواري المقتضب بين حامد وزينب بعد زواجها:

«- أهلا. سا الخير يا زينب. إزيك؟

- إزيك أنت؟ سلمات إن شا لله تسلم.

- مش مبسوطة كده. إزاي الحال؟

- حال لبن. كثر خيرك»

ويذهب بعض الدارسين إلى أن محمد حسين هيكل قد تأثر في كتابة رواية زينب بحياته الشخصية، فشخصية حامد قريبة جدا من شخصية الكاتب فهو ابن محمود مالك الأراضي والمزارع التي يشتغل بها الفلاحون ومنهم زينب، وكذلك كان الكاتب من أسرة ميسورة فوالده هو العمدة ومن الطبيعي أن يمتلك الأراضي والمزارع ، ويشغل العمال، «تأثر فيها بحياته الخاصة حين صور شخصية "حامد" وحيرته بين الطبقات الاجتماعية وثورته عليها، إذ هي تحول بينه وبين زواجه من زينب الفقيرة وبين زواجه من "عزيزة" الثرية.. وعبر من خلالها عن تأملاته وآرائه في الفلاحين والأسرة والزواج والحب وعن أشواقه الرومنسية. وهي في جملتها صدى لدعوة "قاسم أمين" إلى تحرير المرأة التي تأثر بها "هيكل"».

ولئن تأثر هيكل بدعوة قاسم أمين، فإنه مهد الطريق أمام جيل الأدباء الذين اقتفوا أثره في نسج رواياتهم بعد (زينب).